

الفصل السادس والثلاثون

الصفويون

والى هذا العهد تجب اضافة قوم من العرب أطلق المستشرقون عليهم لفظة (الصفويين) ، نسبة الى أرض (الصفاة)^١ . وهم أعراب ورعاة كانوا ينتقلون من مكان الى آخر طلباً للماء والكلأ . وقد دونوا خواطرهم أحياناً على الأحجار ، وتركوها في مواضعها ، ومنها استطعنا الإلمام ببعض الشيء بأحوالهم وأخبارهم . وقوم تنتشر الكتابة بينهم على هذا النحو ، لا يمكن أن نتصورهم أعراباً على النحو المفهوم من الأعرابية ، بل لا بد أن نتصور انهم كانوا على شيء من الثقافة والإدراك .

واذا سألتني عن سبب اختيار المستشرقين لهذه التسمية واطلاقها على أصحاب هذه الكتابات ، فإنني أقول لك : انهم أخذوها من اسم أرض بركانية عرفت بالصفاء وبالصفاة ، تغطي قشرتها الخارجية حتى اليوم صخور سود تقول لك انها خرجت الى هذا المكان من باطن الأرض، وان براكين ثائرة مزججة غاضبة كانت قد قذفت بها الى ظهر الأرض فاستقرت في أمكنتها هذه ، ومن يدري ؟ فلعلها أصابت أقواماً كانت تعيش في هذه المواضع أو مارة بها فأهلكتها . وهي تسمية

١ E. Littmann, Thamud und Safa, In Abhandlung für die Kunde des Morgenlandes, (1940), 25, I, M. Hofner, Die Beduinen in den Vorislamischen Arabischen Inschriften, in L'antica Societa Beduina, (Studi Semitici 2), 1959, 53.

قديمة تعود الى ما قبل الاسلام ، بدليل انها وردت في نص يوناني على هذه الصورة : (Safathene)^١ وورود اسم لآله عرف به (زيوس الصفوي) (Zeus Safathenos) ، أي نسبة الى هذه الأرض^٢ .

أما (الصفوية) ، فتسمية ليست بتسمية عربية قديمة ، وليست علماً على قوم معينين أو على قبيلة معينة ، وإنما هي تسمية حديثة أطلقها المستشرقون على قبائل عديدة كانت تنتقل من مكان الى مكان طلباً للماء وللكلأ ، لرعي ماشيتها التي تكون ثروتها ورأس مالها ، تراها يوماً في أرض النبط ، ويوماً آخر في بلاد الشام حيث كان الرومان ثم البيزنطيون يسيطرون . فنحن في هذا الموضع لسنا أمام مملكة أو حكومة مدينة ، بل أمام قبائل عديدة حرفتها الرعي والغزو وكفى . ومن نسميهم بالصفويين إذن ليسوا بقبيلة واحدة ولا بجنس معين ، وإنما هم قبائل متنقلة ، كانت تنتقل في هذه الأرضين الواسعة ، في أزمنة مختلفة متباينة . ويعود الفضل الى الكتابات التي عثر الباحثون عليها في اعطائنا فكرة عن تلك القبائل المتنقلة ، وفي حصولنا على أسماء بعض تلك القبائل التي كان ينتسب اليها أصحاب تلك الكتابات .

وقد جمعت الكتابات الصفوية من أرضين واسعة ، تمتد من (حماه) في سورية الى نهر الفرات في العراق في الشرق ، والى فلسطين والمملكة الأردنية الهاشمية فأعالي الحجاز ، وكلها كتابات شخصية في موضوعات متعددة ، ليس بينها وثائق تتعرض للمسائل العامة مثل القوانين والحروب بين الدول بتفصيل وتبسط ، ذلك لأن الكتابات الصفوية هي كما قلت كتابات أفراد كتبوها تعبيراً عن أمور شخصية لا غير ، ومثل هذه الكتابات لا تتعرض لما يبحث عنه المؤرخ الا بقليل ، وهو قدر لا يقدم في الغالب للمؤرخ ما يبحث عنه ، ولهذا انحصرت فوائدها في مسائل

١ العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ٢٧) .

٢ العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ١٦٢) .

G. Ryckmans, Inscriptions Safaitiques, Extrait Du Museon, tome, 1-2, Louvain, 1951, Handbuch, S., 46, Ditlef Nielsen, Über die Nordarabischen Gotter, in Mittel. der Vorderas. Gesellsch., Bd., 21, 1916, E. Littmann, Safaitic Inscriptions, Leiden, 1943, Annual Department of Antiquities of Jordan, Vol., I, 1951, P. 17.

وكذلك الاعداد التالية لهذه المجلة التي تصدرها مديرية الآثار في المملكة الأردنية الهاشمية .

أخرى ، في مثل الدراسات اللغوية والدينية وتطور الخطوط ودراسة أسماء الأشخاص والقبائل وما شاكل ذلك .

وانتشار هذه الكتابات وتناثرها في أرضين صحراوية ، أمر يلفت النظر ويدعو الى العجب من أمر الأعراب في ذلك العهد الذين كانوا يقرأون ويكتبون مع أنهم أبناء بادية ، وقد عاشوا قبل الإسلام بزمان طويل ، ثم إن خطها يلفت اليه النظر أيضاً ، فهو خط عربي ، ولد من الأم التي نسلت الخط العربي الجنوبي ، وهو قريب من الخط الثمودي والخط اللخمياني ، ويعني هذا أن العرب كانوا يكتبون قبل الميلاد بخط أود أن أسميه بالقلم العربي الأول ، أو القلم العربي القديم منه تفرعت الأقلام العربية المتنوعة فيما بعد ، فوجد ما نسميه بالقلم المسند وبالأقلام العربية الشمالية ، وذلك لظروف كثيرة لا مجال للكلام عليها في هذا المكان . وهو يدل على أن الصفويين وأمثالهم من الأعراب لم يتأثروا بالثقافة الإرمية مع قربهم منها واتصالهم بها ، وطغيانها على الثقافات الأخرى في العراق وفي بلاد الشام ، فبقوا مخلصين لقلمهم القديم ، فكتبوا به ، ولم يستعملوا قلم بني لرم كما فعل (أهل المدر) المقيمين في مدن العراق والشام وقراها . وكتبوا بلهجاتهم أيضاً ولم يكتبوا بلغة بني لرم كما فعل غيرهم من العرب الحضّر .

وقد رأى (دوسو) (Dussaud) أن الصفويين كانوا يحاكون الجنود الرومان واليونان في تسجيلهم خواطرمهم وذكرياتهم على الحجارة ، فقد وجد الباحثون أحجاراً دوتن عليها أولئك الجنود في أثناء أدائهم واجباتهم العسكرية في بلاد الشام وعلى الطريق الرومانية ذكرياتهم وخواطرمهم ونزولهم في تلك الأمكنة . ولكن وجود كتابات صفوية عديدة من القرن الأول قبل الميلاد يثبت ان الصفويين كانوا يدونون خواطرمهم بهذا الأسلوب ، وذلك قبل شروع أولئك الجنود الرومان واليونان في تدوين خواطرمهم على هذا الأسلوب ، وانهم كانوا يدونون خواطرمهم هذه على الأحجار وبهذا الشكل لأن هذه الحجارة كانت هي ورق كتابة أهل البادية ، فكتبوا عليها كما يكتب أهل الحضّر على الرق والخشب والورق وغيرها من وسائل الكتابة ^١ .

ويرجع علماء الصفويات عمر أقدم الكتابات الصفوية الى القرن الأول قبل الميلاد.

أما آخر ما عثر عليه من كتابات ، فيرجع الى القرن الثالث بعد الميلاد ، على رأيهم أيضاً^١ . فما عثر عليه من الكتابات الصفوية ، هو من عهد تبلغ مدته زهاء أربعة قرون .

وقد أرخت بعض هذه الكتابات بحوادث محلية عرفت عند أصحابها ، الا انها مجهولة لدينا ، لذلك لم نستطع الاستفادة منها في تكوين رأي في زمن كتابتها . فقد أرخ بعضها بسنة وفاة قريب لصاحب الكتابة ، أو بوقت نزوله في المكان الذي كتب به الكتابة ، أو بوقت هربه من الرومان أو بعد كذا من الأيام أو من السنين من رؤية قريب له أو وفاته ، ومثل هذه الحوادث ، لا تفيد المتأخرين شيئاً ، ولا تساعدهم في تثبيت زمن تدوينها بوجه صحيح مضبوط . وأرخ بعضها بحوادث أعم ، الا انها ذكرت بأسلوب فوت علينا معرفة زمان وقوع الحادث بوجه مضبوط ، فقد أرخت كتابة منها بـ (سنت نزر اليهود) ، أي (سنة الخصام مع اليهود)^٢ . وهي سنة كان يعرفها صاحب الكتابة وأصحابه . أما نحن فلا نعلم من أمرها شيئاً ، فقد خاصم العرب اليهود كثيراً في تأريخهم . فأية خصومة من تلك الخصومات قصد صاحب الكتابة . فإذا كان قد قصد ثورة العرب أهل اللجة (Trachonitis) على (هيرود الكبير) الملك المكابي ، فهذه الثورة يجب أن تكون قد وقعت فيما بين السنة (٢٣ ق. م.) والسنة (١٤ ق. م.)^٣ . أما اذا كان صاحب النص قد قصد خصاماً آخر ، فإننا لا نستطيع التكهن عنه من نصه هذا ، لما قلناه من تعدد الخصومات بين العرب واليهود .

وأرخت كتابة أخرى بزمن تمرد صاحب الكتابة على الروم ، وذلك سنة مجيء (الميدين) الفرس الى (بصرى) ، (ومرد على رم سنت أتى همذى بصرى)^٤ وقصد بـ (همذى) (الماذوين) ، أي الميدين من الفرس . ولما كانت الأخبار لم تشر الى اكتساح الفرس لـ (بصرى) قبل سنة (٦١٤ م) ، ظن من عالج هذه الكتابة أن صاحبها قصد استيلاء الفرس عليها في ذلك الزمن ، أي في السنين الأولى من سني مبعث الرسول ، حيث غلبت الفرس على الروم ، كما أشار الى

Winnett, P. I. ١

Winnett, P. 95. ٢

Winnett, P. 95, Josephus, Antiq., XVI, IX. ٣

F. V. Winnett, Safaitic, P. 19, 323, M43, Harding 37, T31. ٤

ذلك القرآن الكريم . غير أن هذا الفريق عاد فأبدل رأيه ، لأنه وجد أن هذا الرأي لا ينسجم مع نوع الكتابة والأبحاث الأثرية التي دلت على أن الكتابة يجب أن تكون أقدم عهداً من سنة (٦١٤ م) ، ورأى لذلك أن استيلاء الفرس على (بصرى) يجب أن يكون قبل ذلك بكثير ، وقد يكون وقع في القرن الأول قبل الميلاد ، غير أننا لا نملك نصوصاً تاريخية تشير الى وصول الفرس الى هذا المكان ، واستيلائهم عليه في ذلك الزمن . وهكذا نجد أن تلك الكتابة المؤرخة قد أوجدت لنا مشكلة ، لم نتمكن من حلها بسبب الغموض الوارد فيها عن سنة استيلاء الفرس على بصرى^١ .

وطالما قرأنا في الكتابات أن أصحابها (نجوا من الروم) أو فروا من الروم ، أو تمردوا على الروم وأمثال ذلك من تعابير . وقد قصدوا بالروم بلاد الشام التي كانت في أيدي الرومان ، ثم انتقلت الى الروم ، وهم اليونان البيزنطيون . ولما كانت بلاد الشام تحت حكم المذكورين ، عبروا عنها بـ (رم) (روم) أي (الروم) (وبلاد الروم) .

لقد كان الصفويون بحكم نزولهم في أطراف بلاد الشام على اتصال بالروم بل اضطروا الى الخضوع لحكمهم والاعتراف بسيادتهم عليهم . والتوغل شمالاً وجنوباً في بلاد الشام بحثاً عن الماء والكأ وعن القوت ، كما اضطروا الى مراجعة قرى بلاد الشام ومدنها للامتيار ولبيع ما عندهم من فائض من منتوج أيديهم ومن حاصل حيواناتهم . وهذا مما يدفعهم الى التخاصم أحياناً مع موظفي الأمن الروم وحراس الحدود ورجال الجباية و (الكمارك) ، في شأن أمور الأمن ، أو أخذ حقوق الحكومة منهم ، فيقبض الروم على من يقاوم منهم ، أو يتهرب من الأداء ، أو يقتل ، أو يقوم بأعمال مخالفة ، فيلقونه في السجن أو يقتلونه ، ولهذا نجد بعض الكتابات وقد سجلت حين هرب صاحبها من سجن الروم ، وعاد الى حريته . وهربه من الروم واستنشاقه نسيم الحرية ، معناه اللجوء الى البادية والاحتفاء بها حيث يصعب على الجنود الروم الوصول اليها للقبض عليهم والاقتصاص منهم . والبادية حصن أمين للأعراب .

Winnett, P. 3, 19, BASOAR, Num : 122, P. 50, Die Araber I, 8., 75, CIS 5,

4448, J. Pirenne I, 212.

ويظهر من هذه النصوص أن شأن الصفويين بالروم لم يكن يختلف عن شأن سائر العرب بهم وبأمثالهم من الدول الأجنبية مثل الفرس ، فهم مضطرون بحكم وضعهم الى التسليم لسلطان الدول الأجنبية ما داموا ضعفاء لا يستطيعون مقاومة الأعاجم ، فإذا تغيرت الأحوال ، وظهرت مواضع ضعف في الأجنبي ، اهتبل الأعراب الفرص ، فانقلبوا عليه حتى يرضيهم أو يظهر قوته . وهكذا كان الصفويون ينتهزون الفرص ، فتى وجدوا ثغرة في سلطان الروم وموضع ضعف في حراسة حدودهم ، هاجموهم منها حتى ينالوا ما يبتغون من مغنم ، وقد ينقلب الحادث عليهم بالطبع ، لسوء تقدير في الموقف ، وهذا ما يحدث في كل غزو أو حرب ، وهو شيء طبيعي فقد ينتصر المحارب فيرجح ، وقد يندحر فيخسر كل شيء .

ويلاحظ من الكتابات الصفوية أن أصحابها كانوا ينزعون نزعة شديدة الى تخليد أنفسهم وابقاء آثارهم وذكرياتهم بكل الطرق الممكنة ، فأرخوا بكل حادث كان معروفاً عندهم ، حتى بحادث ولادة ماشيتهم ، أو مقتل أحدهم ، أو فرض غرامة مالية على أحدهم ، أو سفر أحد منهم وبأمثال ذلك من حوادث صغيرة تافهة ، ولكنها مع ذلك وعلى الرغم مما يبدو عليها من سذاجة تدل على وجود نزعة قوية لديهم لتأريخ كل ما يقع عندهم وتدوينه ، ليطلع عليه غيرهم ممن يمر بالأماكن التي نزلوا بها^١ . هذا وما زال الأعراب وأهل القرى عندنا يسجلون حوادثهم على النحو المذكور من تسجيل التواريخ .

وللطابع الشخصي الذي تحمله الكتابات الصفوية ، لم يتمكن من الاستفادة منها من الوجهة السياسية والعسكرية ، فلم نعث فيها على اسم ملك ، لا عربي ولا أجنبي ، ولم نعث فيها على موضوع سياسي يشير الى الحالة السياسية التي كانت في العراق أو في بلاد الشام أو في جزيرة العرب في تلك الأيام ، ولم يتمكن أيضاً من الخروج منها بأية فكرة عن نوع الحكم الذي كان يعيش فيه الصفويون: أكانوا في حكم ملوك ، على شاكلة عرب الغساسنة ؟ أم كانوا قبائل متنقلة خاضعة لسلطان الروم ، حين تكون في بلاد الشام ، وحررة طليقة حين ترد البادية ؟ وقد وردت في الكتابات الصفوية أسماء قبائل ، منها : (بدن) و (يعر)

١ راجع النصوص الصفوية .

و (تر) ، و (هجدل) (هكدل) ، و (جر) (كر) و (حزن)
و (حضى) ، و (حولت) (حواللة) ، و (دمصى) و (سلم) ،
و (صبح) ، و (ضف) ، و (عبد) ، و (عوذ) ، و (غر) ،
و (فرث) ، و (وقر) ، و (يحرب) ، و (همضر) ، و (املكث)^١ .
ومن القبائل الصفوية : (اشلل) ، و (بكس) ، و (جعبر) ، و (جوا) ،
و (حمد) ، و (حرم) ، و (حظى) (حضى) ، و (حمى) ، و (زد)
(زيد) ، و (زهر) ، و (عدل) ، و (عمرت) (عمرة) ، و (فضج) ،
و (مسكت) (ماسكة) ، و (معصى) (معيص) ، و (نمرت) (نمرة)
(نمارة) (نميرة) ، و (هنر) (هذير) (هذار)^٢ ، و (نسمن) أي
(نسان)^٣ ، و (حمد) (حماد) (حميد)^٤ .

وترد لفظة (ال) قبل اسم القبيلة في كثير من الكتابات الصفوية ، وتؤدي
فيها معنى (آل) عندنا ، مثل : (ال تم) ، أي (آل تم)^٥ ، و (ال عوذ)
بمعنى (آل عوذ)^٦ و (ال ادم) (آل آدم)^٧ ، و (ال حد) (آل حد)^٨ .
وهي بمعنى ان المذكور أو المذكورين من القبيلة المسماة، أو من العشيرة المذكورة ،
أو من البيت المسمى .

وورد (ال) بهذا المعنى في النصوص الصفوية يدل على ان لغة هذه القبائل
وهي قبائل عربية شمالية تشارك لغة القرآن الكريم في هذه الخاصة .

وقبيلة (عوذ) ورد اسمها في عدد من الكتابات الصفوية . وقد ورد في احداها
ان حرباً كانت قد نشبت بينها وبين قبيلة أخرى ، اسمها (وعل) أو (ويل)
أو (وائل)^٩ . وقد يكون لاسم هذه القبيلة صلة باسم الإله (جد عوذ) .

Winnett, P. 4.	١
Jordan, II, PP. 14.	٢
Littmann, Safa, S., 53, 55.	٣
Safa, S., 62.	٤
Annual Report of the Department of Antiquities of Jordan Vol., I, P. 26.	٥
Jordan, I, P. 27.	٦
G. Ryckmans, Inscriptions Saffaitiques Au Britisch Museum et au Musée de Damas, Louvain, 1951, P. 88.	٧
Jordan, I, P. 24.	٨
Jordan, I, P. 27.	٩

وقد عثر على اسم قبيلة (نعمن) ، أي (نغان) في بعض الكتابات الصفوية التي عثر عليها في (وادي خوران) بالعراق . ويرد (نعمان) اسماً لأشخاص ، ومنهم بعض ملوك الحيرة^١ .

وقد ورد اسم قبيلة في إحدى الكتابات التي عثر عليها في العراق ، وهي قبيلة (ال صح) ، أي (آل صح) ، أو (آل صائح) ، أو (آل صيح) ، أو (الصائح)^٢ . وما زال اسم (الصائح) معروفاً في العراق ، وهو اسم عشيرة فقد يكون له صلة بهذه التسمية القديمة .

وقد أفادتنا هذه الكتابات من الناحية الجغرافية ، إذ قدمت لنا أسماء مواضع عديدة لا يزال بعضها يسمى بالأسماء الواردة في تلك الكتابات . وقد يمكن في المستقبل دراسة الأسماء الأخرى لتثبيت مواضعها وتعيينها على مصورات الأرض (الخارطات) .

ومن المواضع التي ورد اسمها في الكتابات الصفوية ، موضع (رجب) ، وهو (الرحبة) . وقد ورد في نص سجله رجل اسمه (حن بن هعتق) ، (حنان ابن العاتق) ، أو (حنين بن العاتق) ، أو (حن بن العاتق) ، وذكر أنه (بن ال - رجب) ، أي (من الرحبة) ، أو (من آل رجب) ، وأنه كتب كتابته هذه في السنة التي دار فيها قتال مع قبيلة (ال حمد) (الحمد) أو (آل حمد)^٣ . وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن (الرحبة) هو اسم موضع . كما أن (الحمد) هو اسم موضع كذلك ، وأن الذين نزلوا في هذين المكانين وفي أمكنة أخرى نسبوا أنفسهم إليها فقالوا : (آل رجب) و (آل حمد) ، وذلك على نحو ما نجده في عربيتنا من ذكر (آل) في الانتساب ، وأن هذا معناه أن أولئك الأعراب الذين نزلوا في الموضعين انتسبوا إلى المكانين ، فاستعملوا لذلك لفظة (ال) ، أي (آل) ، قبل الموضع ، فظهر الاسم (ال رجب) (ال رجب) وكأنه اسم قبيلة^٤ .

١ مجلة سومر ، المجلد العشرون ، ١٩٦٤ ، الجزء الأول والثاني (ص ٢٧) من القسم الانكليزي .

٢ مجلة سومر ، المجلد العشرون ، السنة ١٩٦٤ ، الجزء الأول والثاني (ص ٢٧ ، ١٨) من القسم الانكليزي .

٣ العرب في سوريا قبل الاسلام (ص ١٠٥) .

٤ العرب في سوريا (ص ١٠٥ وما بعدها) .

ولهذا المظهر من التسميات والانتساب شأن كبير في موضوع دراسة أنساب القبائل ، إذ فيه برهان ودليل على أن الإقامة في موضع تكون سبباً للانتساب إليه ، ثم لتحويل ذلك النسب الى اسم جدّ ، وأن ما يرويه أهل الأخبار في هذا الباب مثل انتساب الغساسنة الى (غسان) ، وأن (غسان) اسم موضع ماء نزلوا عليه ، فدُعُوا به ، يجب أن ينظر اليه نظرة اعتبار ، لا رفض وازدراء . وفي أسماء القبائل العربية المدونة في كتاب الأنساب والأدب ، أو الواردة في الكتابات الجاهلية أمثلة عديدة من هذا القبيل .

ومن الأماكن التي ورد ذكرها في النصوص الصفوية : (بصرى) وقد ذكرت على هذه الصورة (بصر) ، و (هنمرت) ، (النمرت) ، أي (النارة) ، و (هشبكي) أي (الشبكي)^١ و (حجر)^٢ .

و (حجر) موضع قد يراد به (الحجر) المعروف في عربيتنا ، وهو (Hegra) و (Hegrae) عند اليونان واللاتين ، و (حجرا) و (حجرو) عند النبط^٣ .

وورد اسم مدينة (تيا) أي (تياء) في الكتابات الصفوية كذلك ، كالذي ورد في نص دونه رجل اسمه (نخل - ال بن شيب) أي (خليل - ايل ابن شبيب) ، وقد تذكر فيه رجلاً اسمه (أبرش) ، وهو من أهل (تياء)^٤ .

ولم يكن الصفويون كما يبدو بوضوح من كتاباتهم ومن صور الحيوانات التي نقشوها على الأحجار أعراباً معنيين في الأعرابية على نحو عرب البوادي البعيدين في البادية ، حيث يقضون حياتهم فيها ، فلا يختلطون بالحضر ، ولا يمتزجون بالحضارة ، وإنما كانوا أشباه أعراب وأشباه حضر ، وربما كان تعبير (رعاة) خير تعبير يمكن اطلاقه عليهم ليميزهم عن غيرهم . فقد كان الصفويون أصحاب ماشية ، لهم ابل ، يعيشون عليها ، ويتاجرون بها ، ولهم خيل يركبونها ، والخيل كما هو معروف لا تستطيع الحياة في البوادي القاحلة العميقة والرمال القليلة المياه ،

١ العرب في سوريا (١٠٦) .

٢ Jordan, II, P. 48.

٣ Jordan, II, P. 48.

٤ Enno Littmann, Zur Entzifferung der Saka — Inschriften, Leipzig, 1901,

S., 51.

ولهم المعز والغنم والحمير والبقر، وهي من الحيوانات التي تحتاج الى رعي ومراعي^١. ولذلك يجب أن يكون أصحابها من طبقة الرعاة . وقد كانت حياتهم حياة رعي، نجدهم في الشتاء في مكان ، ثم نجدهم في الصيف في مواضع أخرى قريبة من الجبال حيث يكون الجو لطيفاً والمياه كثيرة ، ليكون في استطاعتهم الابتعاد من حر الحرار ومن تسموم الأرض القاحلة في الصيف ، ولتستمتع ماشيتهم بجو لطيف فيه ما يغريها من خضرة نضرة ومن ماء عذب زلال .

ان في بعض هذه الكتابات تعبيراً عميقاً عن ذكاء فطري يعبر عن طراز حياة الصفرين ، فكتابة مثل : (ورعى همعز وولد شهى) ، ومعناها : (ورعت المعز وولدت الشياه) ، أو (ورعى بقر هنخل) ، أي (ورعت البقر في هذا الوادي) ، أو (وقف على قبر فلان وحزن) ، هي تعابير، وإن بدت ساذجة مقتضبة لا يكتبها حضري ، غير أنها تمثل في الواقع ذكاءً فطرياً عميقاً ، ونوعاً من التعبير عن حس أهل البادية أو أهل الرعي ، وهو حس مرهف فيه بساطة وفيه اقتضاب نبتا من وحي الصحراء البسيطة الممتدة الى ما وراء البصر على نمط واحد ، وشكل لا تغيير فيه ولا تبديل . وكتابات يكتبها أناس يحيون بعيدين عن حضارة المدن ، ويعيشون بين أشعة الشمس وضوء القمر في بيوت وبر أو شعر معز لا تقني ولا تنفع الا بمقدار ، لا يمكن أن تكون الا على هذا النحو من البساطة ، ولكنها بساطة ذكي يحاول بذكائه التعبير عن حياته تلك .

ونجد هذا الذكاء الفطري في الصور المرسومة للحيوانات ، فقد أراد مصوروها أن يعبروا عن غرائزهم الفنية بصورة محسوسة ترى ، فرسموا صور حيوانات ألفوها ورأوها ، بصورة بدائية ، ولكنها معبرة أخاذة . ورسموا بعض المناظر المؤثرة في حياتهم مثل الخروج للصيد ومعارك الصيد ، فترى على بعض الأحجار فارساً وقد حمل ربحاً طويلاً، ونرى مشاة وقد حملوا أقواساً وتروساً صغيرة مستديرة لوقاية أجسامهم من السهام أو من الحيوان ، ونرى رجالاً يطاردون غزالاً أو ضأناً ، ونرى أناساً فرساناً ومشاة يطاردون أسداً^٢ ، ونرى غير ذلك من صور بدائية من هذا القبيل ، مهما قيل فيها ، فلأنها صور رائعة لا يمكن أن يحفرها

١ العرب في سوريا (١٠٧) .

٢ العرب في سوريا قبل الميلاد (ص ١٠٧ وما بعدها) .

فنان بأحسن من هذا الحفر ، وهو في مثل هذا المحيط ، وليست لديه من آلات الحفر غير هذه الآلات .

والصور المنقوشة على الأحجار التي ترينا الصفوي وقد ركب حصانه معتقلاً رماً طويلاً ، هي صورة المحارب الفارس عند الصفويين ، وهي في الواقع صورة الفرسان الأعراب ، سلاحهم الرئيسي الرماح ، يطعنون بها خصمهم . وما زال البدو في بعض البوادي من جزيرة العرب يحملون ذلك السلاح التقليدي القديم ، يحاربون به خصومهم في المعارك القبلية البدائية . وأما المحارب الماشي ، فإنه يحارب بالقوس وييده الترس كما يظهر من بعض الصور ، وهو لا بد أن يكون قد استعان بأسلحة أخرى بالطبع ، مثل السيوف والفؤوس والحجارة وكل ما تقع يده عليه مما يصلح أن يكون مادة للقتال والعراك^١ .

إن الصور التي تمثل الناس ، وهم يطاردون الغزلان أو بقر الوحش أو الأسد أو الحمار الوحشي ، هي صور مفيدة جداً تتحدث عن وجود تلك الحيوانات في تلك الأماكن وفي تلك الأوقات ، وعن طرقهم في صيدها . وقد كانت لحوم بعض تلك الحيوانات طعاماً شهياً لمن يصطادها ولآلهم وجماعتهم ، كما أن لوجود صورة الحصان شأناً في اظهار أن الصفويين وغيرهم كانوا يعرفون الخيل في تلك الأزمنة ، وأن الحصان العربي كان موجوداً يومئذ^٢ .

وفي جملة ما عثر عليه من أسماء آلهة الصفويين اسم إله عرف بـ (إله هاجبل) (إلاه هاجبل) (إله الجبل) ، وهي تسمية تدل على أن عبده كانوا من سكان جبل أو أرض مرتفعة ، ولهذا نعتوا إلههم بـ (إله الجبل) أو أن عبده هؤلاء قد أخذوه من أناس كانوا قد خلقوا إلههم من ارتفاع أرضهم ، وصار إلهاً من آلهة الصفويين . وهو يقابل الإله المسمى بـ (الاجبل) (Elagabal) وهو كناية عن الشمس، وكان يعبد في (حمص) (Emesa) فإن لفظة (Elagabal) تعني (إله الجبل) . وقد رمز إليه بـ (حجر أسود) وعباد الحجر الأسود كانت معروفة عند الجاهليين . وقد كان أهل مكة يقدسون الحجر الأسود في مكة ويتقربون إليه^٣ .

١ العرب في سوريا (١٠٧ وما بعدها) .

٢ العرب في سوريا (ص ١٠٨) .

٣ F. Altheim, Aus Spätantike und Christentum, 1951, 28, Die Araber, I, S.,

ولا ندرى من حلّ في محل الصفويين فأخذ مواطنهم ، ولم تختف كتاباتهم بعد عهدهم هذا ؟ هل كان الذين أخذوا مكانهم أميين لا يقرأون ولا يكتبون فكانت أيامهم صُمتاً بكمّاً ؟ الذين أخذوا مكانهم هم أعراب مثلهم ، كانوا أقوى منهم ، لذلك تغلبوا عليهم على وفق سنة البادية . هذا جواب لا شك فيه . ولكننا لا نستطيع تحديد هوية أولئك الأعراب وتعيين أسماء قبائلهم ، كما أننا لا نستطيع التحدث عن سبب سكوتهم وعدم ترك آثار كتابية لهم نتحدث عن أيامهم وعن قبورهم وأصدقائهم وما شاكل ذلك من أمور الى زمن مجيء الاسلام . إن الغساسة ، هم آخر من نعرف أنهم كانوا في هذه الأرضين وفيما جاورها وكذلك قبائل عربية أخرى مثل لحم وكلب ، ولكننا لا نعرف أنهم تركوا كتابات تتحدث عنهم .

وبين أسماء الأشخاص المدونة في النصوص الصفوية أسماء تشبه أسماء أهل مكة والعرب الشماليين شبهاً كبيراً ، ويحملنا هذا على تصور ان ثقافة الصفويين عربية شمالية . ونجد هذا التشابه في أمور ثقافية أخرى ، سأحدث عنها في الأماكن المناسبة . ومن الأسماء الواردة في النصوص الصفوية : (قصيو) ، أي (قصي) . وقد ورد اسم (قصيو بن كلبو) ، أي (قصي بن كلاب) في أحد النصوص . وكان من رجال الدين . وورد (قصيو بن رحو) أي (قصي بن روح) . و (قصيو بن اذينت) ، أي (قصي بن أذينة)^١ .

ويرى بعض المستشرقين ان الصفويين هم مثل سائر القبائل العربية الشمالية هاجروا من جزيرة العرب الى الشمال ، فسكنوا في منطقة (الصفاة) ، غير أنهم لم يكونوا قد اندمجوا في أثناء تدوينهم كتاباتهم بالثقافة السامية الشمالية كما اندمج غيرهم مثل النبط ، بل كانوا لا يزالون محافظين على صلاتهم بالجزيرة ولا سيما بالعربية الجنوبية منها موطنهم القديم . وتعتبر عن هذه الصلة بعض الخصائص اللغوية التي ترجع على رأيهم الى أصل عربي جنوبي ، غير أنهم تأثروا بالطبع بمن اختلطوا بهم وبمن تجاوروا معهم من الساميين الشماليين أو العرب الشماليين ، ويظهر أثر هذا الاختلاط على رأيهم أيضاً في الأسماء والكلمات والتعابير الخاصة التي نقرأها في هذه النصوص^٢ .

١ رنيه ديسو ، العرب في سوريا ، (ص ١١٦) .
Handbuch, S., 48. ff., René Dussaud, Les Arabes en Syrie Avant L'Islam,
٢ E. Littmann, Götting. Gelberte Angelger, 1908, S., 144.

قلت : إن كلمة (الصفويون) لا تعني شعباً معيناً أو قبيلة معينة ، وإنما هي اصطلاح أوجده (هاليقي) ليطلق على الكتابات التي عثر عليها في مواضع متعددة من (اللجاة) و (حوران) ومواقع أخرى ، لذلك يجب ألا يفهم أننا نقصد أناساً تركوا لنا كتابات متشابهة كتبت بقلم واحد ، ليظهر أنهم كانوا بين البداوة والحضارة فلاحين ورعاة لهم قرى ومزارع ، وربما كانت لهم تجارات أيضاً ، غير أننا لا نعرف من أمرهم شيئاً كثيراً . فقد يكونون اذن من قبيلة واحدة ، وقد يكونون جملة قبائل ، وقد تكون لهم (امارة) لا نعرف من أمرها شيئاً ، وربما لا يكون لهم ذلك . وربما كانوا أتباعاً للسلطة القائمة في بلاد الشام تتحكم فيهم بنفسها أو بواسطة أمراء أو سادات قبائل .

وقد يكون الصفويون أناساً وصلت أسماءهم إلينا ، وكتب المؤرخون عنهم ، ولكننا لا نعرف أنهم هم الذين نبحث عنهم ، لأننا أمام اصطلاح جديد مبهم ، ظهر كما قلنا في القرن التاسع عشر ، ليست له حدود واضحة ولا معالم مرسومة ، فلا ندري نحن في الواقع ما نريد ، قد يكون هؤلاء أسلاف غساسنة الشام ، وقد يكونون غيرهم .